الفصل الثالث

سبحان الذي لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام !!..

رأت الحاجة أمُّ مجاهد ابنها مَهْمومًا؛ وكانت تحرص على القُعود أمام الدكان لتراه في طريق ذهابه وعودته من المسجد، فتوقف يقبّل يدها؛ وذكر لها أن زَوْجة أخيه قرَّرت غلق الحضانة بمنطق سِيب وأنا اسيب؛ إذا حان وقت نومه أخذت تدقُّ، وكان يريدها ألا تطّلع على ما تَصْنعُ زوجة أخيه، فأمرته في جدٍّ كذلك:

- لا تقلْ لها كفّ.

- وكيف أنام يا حاجة؟ إذا لم يأتها صوتنا، وشعرت أننا ننام قامت تَدُقُّ، وتظل ابنتها تَجري فوق رؤوسنا فوق السقف؟ فأكدت كذلك:

- تتعب إن تدق؛ عندها يمكنك أن تنام.

فقابله قريب لهما، فسألَه عمّا بينه وبين أخيه؟

- ليس بيننا شَيْءٌ؛ نتقابل، فيسلم عليّ، وأنا أرد عليه السلام.. قال:

- لكنَّا لم نتعود منكم ذلك! وضحك، وعَلِمَ منه أنَّ أمَّهُ من حدثته، وأنها قلقة بشأن العلاقة بينه وبين أخيه فصرح للسائل:

- إن طلبتني للجلوس لن أمانع، لكن رجاءً ألا تذكر أني حدثتك في شيء.

فرغم عزّة نفس مجاهد كان مُبغضًا للشّقاقَ؛ ولأنَّه يخشى أن يعنّف أخاه الأصغر، تجَنَّبَ الحديث المباشر معه، وكان مشفقًا على والدته كذلك؛ فمَهْما بلغ الأمر؛ لن يبلغ حد التشاجر؛ بل يظل هو الأخ الأكبر الذي يعطف أبدًا؛ الحريص ألا يخسره أخوه؛ ولأجلها؛ أسرع بدفع الحديث في هذا الاتجاه؛ ويُحَرّضُ عليه، وكان يفكر جَدّيًّا في تأجير شقته، والبحث عن سكنٍ.. فقالت زوجته على طريقة كيد النساء:

- سأنقل الحضانة إلى هنا إلى الدور الثاني، ونترك الدور الأرضي مُغْلقًا لا ينتفع به نحن ولا هم. قال:

- لَسنا في حربٍ! إذا كانوا لا يطيقونها بالدور الأول؛ أيطيقونها إذا صَعَّدتّ بها هنا؟ فزأرت:

- أليس حقنا؛ ولتَعْلمَ زوجته كيف يكون الإزعاج، وما نحن فيه من جراء طلوع ونزول الأولاد الذين يأتون للمكتب؟ وابتسمت؛ سيكون وقع أقدام أطفال الحضانة على السلالم، كقطيع أغَنامٍ؛ وأتبعت تحذّر:

- لن نحقق لهم مرادهم؛ ولا تطلب مني أنت ذلك؛ لن أغلق الحضانة مهما حصل..

وجلس وأخوه في حضرة بعض الأقاربِ؛ فقَصَّ عليهم كيف نشأت الحضانة، وكيف أن بنات أخته هُنَّ من سعين في الشأن علاجًا لمشكلة زوجته مع الفراغ، وليَعْملن فيها، وأن الحضانة تخدم قرية ليست فيها مدارس، وأنه وأخاه هذا شريكان في الأجر.. فأسرع في الردّ:

- بنات أختك لم يعدن يعملن بها، والشريعة تقول: لا ضرر ولا ضرار.

فالتفت إليه وهو يحاولُ كبح نفسه من الغضب:

- فما هو الضرر التي تحدثه لكم الحضانة التي تبدأ صباحًا في الثامنة، وتنتهي١٢ ظُهْرًا قبل رجوعك وزوجتك من العمل، وقبل رجوع أولادك من الجامعة والمدارس؟! فقال:

- أحيانًا نرجع من المدرسة قبل الظهر، فلا نتمكن من أن ننام؛ ورجع ينشد أن بعض الجيران اشتكي من ارتفاع الصوت، وليس في كل يوم أبناؤه يذهبون إلى الجامعة؛ بل يسهرون إلى الفجر، وينامون إلى الظهر ويزعجهم الصوت!

فبدأ مجاهد يغضب فقرأه.. "مِن قَبْلِ صلاةِ الفجْرِ وحينَ تضعون ثيابكم مّنَ الظهيرةِ ومن بعد صلاة العشاءِ ثلاثُ عوراتٍ لَّكم".. هذه أوقات الراحة

إن كنت تريد شرعًا؟ وأعجب من مكتب يُعقد فوق السطح أمام غرفة وَلَديْكَ بالدور الرابع فلا نرى لكم شكوى من ارتفاع الصوت؟ أتعلم لِمَ؟! لأن ابنتك تجلس بين الأولاد؛ أما صوت أطفال الحضانة فهو يصعد إلى الدور الرابع فيزعجكم لأنه ليس لك بينهم أبناء! ثُمَّ من هؤلاء الجيران الذين يشكون، ولِمَ لمْ يأتوا فيكلموني؟ فأي شيءٍ تريد؟ قال:

- "وإن عاقبتكم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به".. ورجع يُنشد أن فلانًا، وفلانًا كلموه في شأن إزعاج الحضانة لهم؛ وهم يَسْتحيون منك.. فأنبه مجاهد بشدة:
- هم الغرباء ويسْتَحْيون منّي، أما أنت، وزوجَتكَ، وولدك فلا تستحون؛ تريدون غلق الحضانة، نحن نصبر على هبوط الأولاد من الدور الرابع وصعودهم؛ فأبيت أنت وزوجتك وولدك إلا أن تعاقبونا، فتظل زوجتك تضرب بعفشها السقف تمنعنا النومَ، حتى عزمنا الرحيل وترك البيت لكم.

فدافع أخوه في هيئة المتشاجر:

- نحن نخاف الله، ولا يمكن أن تفعل زوجتي ذلك، بل نحن من يبحث عن سكنٍ لنا من يوم ما أنشئت الحضانة.. فتدَخَّل الأقارب ليغلقوا هذا السجال:

- ونحن لن نسمح برحيلكم، وتابعوا؛ وماذا لو علمت الوالدة أن الخلاف وصل بينكم إلى حد تركككم البيت؟! فأسرع أخوه:

- نحن على استعداد للعودة بالمكتب إلى منزل الوالدة مادام صعود الأولاد ونزولهم على السلالم يؤذيكم - والمعنى؛ مُقابِلُ غلق الحضانة - فصمت لم يُجبْه؛ وأجاب الحاضرون عنه:

- موضوع الحضانة خط أحمر؛ ويتوجب علينا أن نبحث عن حل آخر.. فعرجَ أخوه إلى موضوع النقود التي أعطاها للبنية، وشاهده ويده تمتد إلى جيبه تتأهب لاستخراجها فنفد صبره:

- هات؛ أعترف أني قد أخطأت.. فترك أخوه استخراجها؛ وتحدث له الحضور:

- بل أنت كعم للبنية لك الحق أن تعطيها وأن تعاقبها؛ وأثنوا على الطريقة التي عالج بها الموضوع مع البنية، وأقرَّه أخوه بذلك وأعلم أنَّه لم يخْبَرُ بما حَدَّثَ به البنية؟

وهدأت النفوس، وبدأ يلوح في الأفق الوفاق.. قال الحضور:

- نرى أن المشكلة ليست بين الشيخ؛ والأستاذ؛ المشكلة بين فلانة وفلانة - يعنون زوجتيهما - وأنه يتوجب عليهما أن يجلسانهما معًا، ويسعوا بالصلح بينهما..فبادر مجاهد:

- ليس لدي أدنى مانع؛ وما تفرضوه على زوجتي أنا كفيل بإلزامها به، ولن أكون حاضرًا معكم؛ اطلبوا زوجتي متى شئتم أرسلها لكم.

فكان هذا النقاش بين السلفتين في حضرة أخيه وهؤلاء الأقارب:

- عمي مات؛ ورأتني في الجِنازة؛ فمَرّتْ ولمْ تُعزني فيه.. فردت زوجته:

- الحي أبقى من الميت! كيف أُعزّيكِ ونحن نبحث عن مكانٍ لنترك البيت ممَّا تفعلينه بنا؛ تجعلينا لا ننام؟

- الحال من بعضه؛ فنحن منذ أُنْشِئت الحضانة، ونحن نبحث عن مكان ننتقل إليه والأولاد.. فقالت زوجته كذلك:

- ونحن، منذ خمس عشرة سنة خَلت نتحمل هَوَسَ الدروس، والمكتب الذي كنتم تعقدونه لأبنائكم في هذه الشقة عندما كانت الحاّة بها ولم نشتكِ يومًا.

فضحك الحضور وتركاهما تتعاتبان٠٠ ثُمَّ توجهت إليهم زوجة أخيه بهذا الكلام:

- هي تعاملني كأني طفلة عندها في الحضانة: ألا تريدين الانضباط يافلانة؟ وإلا؛ ستضربني مثل العيال! فضحك الحضور:

- سبحان الله؛ تهرج معك؛ وهل صحيح أنها تضربك.. فقالت زوجته:

- يا جماعة، سبب الكلام..قابلتني وكانت مكَشّرة، وأخذت وجهها جانبًا؛ فاستوقفتها:

- تعالي هنا؛ آه يا ابنتي؟! على طول آخذة في وجهك، قاعدين في الحضانة فتمري علينا فلا تلتفتي؟ ولا سلام؟ ولا كلام؟

- والتفت لِمَ؟!

فقام أحد الحضور فقدم مشروب الكركديه إلى زوجته يُهَدئهُما، فاستوقفه الآخر:

- لا، بل فلانة من تقدم لسلفتها الكركديه؛ لأن الكُلَّ جلوسٌ بالدور الرابع فوق السطح أمام غرفة أبنائها.. فتابع يَحُثُّها: اعزمي على سلفتك؟ هي عندك والمفروض أن تناوليها أنت المشروب؟ وقالوا:

- عمومًا؛ نحن لا نرى بينكما مشكلة؛ وأنتما وان كنتما سلفتان، فجارتان أقرب لبعضكما من أهليكما. فقالت زوج أخيه:

- وأين الحاج فلان؟! – تعنيه - لِمَ لَمْ يطلع معكم؟ وهو كل ما يحصل حاجة يروح للحاجة يشتكي لها؛ ليُغضبها منَّا؟!

- دع الحاج فلانًا جانبًا؛ نحن من طلبنا منه ذلك.. وقالوا:

- نقرأ الفاتحة على الصفا.. وقالوا لزوجته:

- وأنت يا فلانة، اشربي الكركديه؟ فضحكت:

- طبعًا أشربه؛ ولِمِ لا؟! وقالت لسلفتها تسترضيها؛ وكان الجميع قد نزلوا، وانحنت سلفتها على أشيائها تجمعها، فربطت على ظهرها لتلتفت إليها:

- أحمل معك شيئًا؟

- لا..

وبعد يومين؛ عادت ريمة لعادتها القديمة؛ مرت عليهما، وهما جلوس في الحضانة، فلم تلتفت، ولم تتكلم، وأخذت وجهها جانبًا.. فقال لزوجته:

- اثبتي على ما اتفقتم عليه مع الرجال.. وقال يسترضيها:

- يا ست أميرة بناقص هذا الكلام؟ فابتسمت ترضى..

وبعد ثلاثة أيامٍ من تنحّي مبارك؛ قامت وسائل الإعلام الحكومية بوجهٍ منافق؛ تستشرف للمستقل: أهلًا بالديمقراطية.

الجيش: سنحقق أكثر مما يأمل الشعب. انتخاب برلمان نزيه، ورئيس جديد خلال ستة أشهر؛ المجلس الأعلى، يدير شؤون البلاد حتى أغسطس، أو انتهاء الانتخابات البرلمانية والرئاسية؛ قواتنا

المسلحة تحدد ٦ أسس لمشروعية نظام الحكم الجديد.. حرية الإنسان المصري، سيادة القانون، تدعيم المساواة، تعددية حزبية، عدالة اجتماعية، اجتثاث جذور الفساد.

د/ شفيق؛ رئيس الوزراء: إعادة كل سنتيمتر من الأراضي الزراعية المسلوبة.

مصدر عسكري: ندعو إلى تغليب مصلحة الوطن على المطالب الفئوية.

وقالت جرائد المعارضة كلاعب مهاجم أحرز أهم الأهداف: الجيش ينتصر للشعب.. حل مجلس الشعب والشورى، وتعطيل العمل بالدستور.. مليونية جديدة الجمعة القادمة للاحتفال بالثورة..التفاصيل: المشير طنطاوي؛ رئيس المجلس العسكري، يتولى تَمْثِيله أمام كل الجهات في الداخل والخارج، ثورات صغرى تجتاح مصر، بريطانيا تشترط الحصول على طلب رسمي لتجميد أرصدة مبارك، الأموال العامة تبدأ تحقيقاتها حول ثروة الرئيس السابق.

وصنداي تايمز.. مبارك تمسك بالسلطة ١٨ يومًا لتأمين ممتلكاته؛ والسلطات البريطانية تتحرى عن ثروته.. النيابة العامة تستمع لأقوال العادلي؛ وزير الداخلية للمرة الخامسة.. والأموال العامة تستدعي نظيفًا؛ رئيس الوزراء السابق؛ وعز؛ أمين عام تنظيم

الحزب الوطني، يقاضي الدستور؛ ويطالب بتطبيق خمس مواد من قانون العقوبات، ومجلس الشعب يرفع عنه الحصانة لبدء محاكمته.. فرجع الشارع ينقسم؛ فمن شباب يهتفون: مصر تريد إخلاء الميدان؛ فقامت وحدات من الجيش والشرطة بإخلاء ميدان التحرير من المتظاهرين، وإعادة حركة السير والمرور به، بعد أكثر من أسبوعين على اندلاع الثورة؛ وقامت مجموعة من الشباب بالمرور والدوران حوله وترديد هتافات: اللي يحب مصر يطلع من الميدان، وانخرطت مجموعات أخرى في مهاجمة المتظاهرين، والسخرية منهم، ومطالبتهم بالعودة إلى منازلهم؛ فرفض آخرون ما وصفوه؛ بالأسلوب الأمْني المؤامراتي الرديء، ورفضت طائفة مغادرة الميدان نهائيًا حتى يتم الاستجابة لمطالب الثورة التي صدرت في بيانٍ عن جماهيرها أمس أهمها.. إلغاء قانون الطوارئ..الإفراج عن المعتقلين السياسيين..إلغاء جهاز أمن الدولة.. وحل مجلس الشعب والمحليـــات.....

فاتفق القطاع الكبير من المتظاهرين على الرحيل، والعودة كل جمعة في مسيرات مليونية لمتابعة مطالب الثورة، والتأكيد على تنفيذها؛ فسهَّلت الثورة للمارد الأكبر الخروج من القُمْقُمْ.. مظاهرات للمدرسين المتعاقدين بالأزهر للمطالبة بالحق في التثبيت، ونام على القطبان عمال عربات النَّوم بالسكك الحديدية، واعتصم عمال شركة بترو ترید، مظاهرات بـ١٨بنكًا؛ ورؤساء البنوك يهددون بالاستقالة،

مظاهرات رجال الشرطة أمام وزارتهم مطالبين بمحاكمة "العادلي" وزيادة الأجور؛ فاستقبل وزير الداخلية وفدًا منهم، ولبي طلباتهم، ووعد بتحسين الأجور

وقامت إضرابات بشركة كهرباء جنوب القاهرة للمطالبة بتعيين أبناء العاملين؛ والعاملون بوزارة الثقافة يطالبون برحيل ذيول فاروق حسني؛ وزير الثقافة السابق، والعاملون بجامعة المنصورة يواصلون اعتصامهم لليوم الثاني لعدم تثبيتهم وصرف الحوافز، والمئات من العاملين بمشروع النقل الجماعي يطلبون ضمهم لوزارة المالية، وإضرابات، واعتصامات في قطاعات البترول، والغاز، والحديد والصلب، والمخابز، والبريد؛ آلاف أمام مبنى محافظة القاهرة للمطالبة بشقق سكنية، مظاهرات لعمال السّكَة الحديد، وصَحَفِيّ الجمهورية والوطني اليوم، العاملون بوزارة التعليم بالجيزة يدخلون في اعتصام مفتوح من غد لأجلٍ غير مسمى، العاملون بهيئة الثروة المعدنية يطلبون المساواة بالبترول، اعتصم ألف عامل بسكر الحوامدية، الموظفون بالتموين يطالبون بزيادة الحد الأدنى للأجور إلى١٢٠٠ جنيه، ثلاثة آلاف موظف بهيئة قضايا الدولة يطالبون بمساواتهم بالعاملين بوزارة العدل، عمال الدولية للفحم يطلبون زيادة الأجور وحصة في الأرباح، ثورة عمال في عدد من المصالح الحكومية بالإسماعيلية للمطالبة بتحسين الأجور، وبجامعة المنيا يحطّمون مبنى الإدارة المركزية ويقتحمون مكتب رئيس الجامعة،

وقفات احتجاجية تحت الأمطار تعطل المرور بالإسكندرية، اعتصام مفتوح للبحارة بالبحر الأحمر أمام مبنى التفتيش البحري بالغردقة يطالبون بإقالة مدير التفتيش البحري الحالي، وقفات لـ١٢٠٠ عامل في شوارع أسوان!! وقفة احتجاجية للعاملين ببنك التنمية الزراعية بقنا، ووقفات احتجاجية بالقليوبية بسبب إلقاء طلبات التوظيف على الأرض! ..

فبدا أنه لم يبقَ في مصر أحدٌ إلا ترك عمله وخرج للتظاهر، أو الاعتصام لنيل قطاف الثورة؛ فخرج د."شفيق" يُحَدّثُ.. أن اهتمام حكومته في اللحظة الراهنة ينصب على مطلبين أساسيين هما؛ إعادة الأمن للبلاد، واستئناف الحياة الطبيعية؛ وقال للمطالبين العَجِلِين: كل أمور الدولة في خريطة أمامي، أعمل على تيسيرها وفقًا للأولويات، وحذَّر رئيس مجلس الوزراء من استمرار الاحتجاجات والاعتصام لتأثيرهما السلبي على الاقتصاد المصري؛ وقال: خسائرنا من توقف العمل تقدر بملايين الدولارات يوميًّا، أدعو شباب التحرير للعودة إلى العمل، الحكومة تنظر للحركة الشبابية في ميدان التحرير بشكل إيجابي وأنها قصة نجاح؛ فرجع مثل هذه العبارة كخاتم شعار يوثق به كل متحدث حديثه، زلفى إلى الشباب!!

فقال مجاهد لزوجته:

- كنت أعتقد أن الناس ودعت النفاقَ؛ أرجو ألا نكون قد ارتكسنا فيه إلى الأبد!.. يا ليْت مُبارك قام حتى نهاية ولايته؛ فلئن عدمت مصر طوال ثلاثين عامًا نائبًا واحدًا لـ مبارك، فقد اسْتُخْلِفِ برحيله المفاجئ ثمانون مليون نائبٍ له!...

كُلُّ شخصٍ كبير نفسه!. سائقو المكروباص بالمنصورة نظموا إضرابا انتهى برفع الأجرة من خمسة وعشرين قرشًا إلى خمسين قرشًا، فرضخ الناس؛ ولم يكتفِ سائق منهم برفع الأجرة إلى الضعف، إذ فوجئ مجموعة من الركاب به؛ وهو يعمل على خط "سندوب - طلخا " يقف عند مفرق الدّراسات، ونادى على السادة الجالسين الذاهبين إلى" طلخا " ليستقلوا ميكروباصًا آخر:

- يا جماعةُ الخيرِ آخرنا هنا؛ وانحرف بمقدمة الميكروباص إلى طريق كلية البنات للدراسات الإسلامية، ثمَّ لم يلبث أن قال لمساعده في ضيق حين لم ينزل أحدٌ:

-ألست قد ناديت يا ابني على الدراسات؟! سأله كذلك؛ فأجاب المساعد:

- نعم يا اسطى.. فأردف يحدثه مؤنبًا القاعدين كذلك:

- فما بال هؤلاء لم ينزلوا ؟؟.. فتحدث أحد الركاب يوجهه:

-خطك؛ سندوب- طلخا يا اسْطىَ ؟

- أنا هُنا من يقول: أُركّب لأين؟ وارجع لأين؟! السائق؛ تفضلوا انزلوا.

ليفْرطَهُم ويأتي بحِمْلٍ جديدٍ فخط " سندوب – طلخا " يتطلب منه مواصلة السير إلى ضعف مسافة الدراسات؛ ولمّا لم ينزل أحد وبقي كل راكب في مقعده؛ رجع بمقدمة السيارة، وواصل طريقه، ولكيلا يعبر بهم البحر ويذهب إلى طلخا؛ وينقلب بحملٍ جديدٍ عائدًا لـ سندوب، عاد فتوقف عند مبنى المحافظة، يستكمل الركاب، وقال مُحذرًا:

- يا جماعة الخير؛ آخرنا الكوبري؛ لن أدخل طلخا؛ لن أذهب إلى الموقف الجديد.. فصمت الركاب ولم يجبه أحد؛ ولمّا توقف عند الكوبري ينادي:

- يا جماعة الخير؛ آخرنا هنا؛ لن أعبر الكوبري.. فرجع الركاب ينظر بعضهم إلى بعض، وهَمَّ البعض بالنزول، فرفعت عجوز صوتها في انزعاجٍ تستفسر كذلك:

- يا بني؛ ألست ذاهبًا إلى الموقف الجديد؟!. فأجابها في شكيمةٍ شَخْصٌ قويٌّ، وأهاب بالركاب:

- لا أحد ينزل؛ اقعدي يا حاجة، وأمر كل من هو ذاهب إلى الموقف الجديد أن يقعد في مكانه.. فلم يجد السائق أمام هذه اللهجة الصارمة المألوفة جيدًا لديه إلا أن يستأنف سيره عابرًا بهم البحر إلى طلخا؛

ثم إلى الموقف الجديد.. وأردفت الزوجة تنظر إلى مجاهد مسرورةً وكانت ضمن الرُّكاب:

- عرفت؛ من لهجته القوية أنه ضابط شرطة في ثيابٍ مدني، لم يصبر على المهزلة، ولم يرَ أن يعلن عن شخصه لِمَا تشهده البلاد من حملات تحريض ضدهم؛ وختمت:

- غاب القط، إلعب يا فار؟

مشى السائق يدخن، ورغم أني لم أعبر معهم، ونزلت الكوبري؛ محطة وسط المدينة إلا أني وجدتُني أدعو لهم في نفسي: رُوُح ربنا يحميك.

وبعد هذا الحادث بيومين؛ صبح يوم الجمعة؛ بينما هو ذاهب لأداء الخطبة شاهد قطة نائمة إلى جوار سيارته ٢٧ فيورى - التي حمد الله أنها صغيرة وقديمة لا مَطْمع فيها، فهي تَبِيت بالشارع - شاهد قطة ترفع رأسها وتخفضه في ضعف شديدٍ، وصبيان ينخسونها في غباء كي تنهض، وهي لا تقدِرُ أن تنهض، فوقع فيهم:

- يا أولاد الكلب؛ تجمَّعون على قُطّةٍ تموت تضربونها؟ ماذا فعلت فيكم؟! فانطلقوا راهبين، فأردف في إثرهم:

- ألم يعلمكم أهليكم أن اللعب بالحيوان وضربه حرام؟! فقالت أُمُّه:

- من البارحة، وهي على ذي الحال! أكلت سَمًّا؛ فناشدها:

- بالله يا حاجة؛ حاولي أن تقدمي لها شيئًا.. قالت:-

- ترفض الطعام؛ قدمت لها البارحة لبنًا طازجًا فلم تمسه؟ لكن طالما بقيت إلى اليوم لن تموت، وأنبأت: قلت لفلان - فلاح يزرع الحقل المقابل - لا تضع في الأرض سَمًّا؛ والطير الذي ينزل الحقل خذه، القطط هي من ستأكل السَّمّ، وتموت وذنبها في رقبتك، إلا أنه لا يسمعْ..

فَخلَفَ القطة في مكانها وركب سيارته، وذهب مهمومًا فهذه هي النهاية لكل حيٍ؟؟ وازداد صدره ضيقًا بالأحداث؛ وقال في نفسه: كيف سيواجه الناس وهو بهذه الحال؟ راغبٌ تمامًا عن الكلام، ولا حمية تدفعه إلى التواصل؟ فالكل ذهب راكبًا الموجة وينبغي له أن يسبح ضد التيار؛ وكان دعاة أنصار السُّنة قد انقسموا فئتين مختلفتين؛ وكان من الفئة التي ترى: أنه لا يجب الخروج على الحاكم الظالم إلا أن يكفر والحجة قول النبي: "إنَّكم سَتَرَونَ بعدي أَثَرةً، فاصبروا حتى تلقوني"، فأُمِرَ عند وقوع الظلم من الحاكم، ووقوع استئثاره للحظ الدنيوي بالصبر؛ وسبب عدم انعزاله بظلمه وتحريم الخروج عليه لما يترتب على ذلك من الفِتَنِ وإراقة الدماء وفسادِ ذاتِ البَيْنِ.. وتذاكر الخطبة في نفسه، وعند مساكن المجزر، لمَّا مال بالسيارة عن الطريق السريع إلى موضع للنّفاية، ليضع مخلفات

البيت التي حملها معه؛ شاهد مشهدًا مُثيرًا؛ كَلبًا تراوده أنثاه؛ تقف أمامه، تعرض نفسها عليه عرضًا!! فعلم أن الحياة لا تقف، ففي ذات اللحظة التي تخضع قطة لسكرات الموت، تجد الرغبة هنا مشتعلة في حياةٍ؛ وتردد في أذنيه قَوْلةَ أمه في شأن القطة: من البارحة وهي تعاني، وطالما أنها بقيت إلى اليوم فستنهض؛ فراوده الأمل من أجلها٠٠

ثّمّ إنه لم يستح، وهو ساجدٌ - يصلي بالناس بعد الخطبة - أن يدعو للقطة بالشفاء.. ولمّا همَّ بالانصراف؛ قام إليه نفرٌ يحيطون به في حفاوة، مُعلنين ارتياحهم لمَا قاله؛ فقد أرهقهم تفرق الآراء بعد زوال مبارك، فاستخرجهم بما خطبهم من الحيرة قال:

"إنَّما الإمامُ جُنّةٌ يُقاتل من ورائه ويُتَقى به؛ فإن أمر بتقوى الله- عز وجل- وَعَدلَ؛ كان له بذلك أجرٌ؛ وإن يأمر بغيره كان عليه منه".. وعرض لأسباب الأحداث وحذر من تكرارها: "واتَّقُوا فِتْنَةً لا تصبنَّ الذين ظلموا منكم خاصةً واعلموا أن الله شديدُ العقاب"٠٠ والمعنى ما ذكره الطبري عن ابن عباس: أمر الله المؤمنين ألا يُقرّوا المنكر بين أظهرهم فَيَعُمهمُ العذابُ، وله شاهد من حديث عند أحمدٍ؛ فعن عَدّي بن عُمَيْرة سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول " إنّ الله لا يعذبُ العامةَ بعمل الخاصةِ حتى يروْا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامَّة والخاصَّةَ".. وقال في شجاعة:

لقد أطل علينا شيخ الأزهر بعد تنحي الرئيس السابق؛ فقال: كنا نَتحدث فلم يُسْمَعْ لنا، ونقول له: طالما فضيلتكم كنت ناصحًا لـ "مبارك" فلم يُسْمَعْ لك؛ لِمَ لمْ تترك له منصبك؟ وبمثله تحدث فضيلة المفتي: أفتيت بعدم جواز التوريث، ولكن لم يكن يسمح لفتوانا أن تظهر، ونقول لفضيلته، ولفضيلة شيخ الأزهر: ألم يكن بقاؤكما في منصبيكما إقرارًا منكما، وكان الواجب - إعلاء للأمانة - اعتذاركما إلى مبارك عنهما، وإعلامه سبب الاعتذار فتكونا في الناس قدوة؛ أم هو الحرص على المنصب؟! وأخبر أن الفتنة في الدنيا سُنَّة من سنن الله، وتكون فيما يُدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، قال تعالى.. "ونَبْلُوَكم بالشر والخير فتنة".. كالقتل، والعذاب، والمال، والرئاسة؛ وحذر الله كثيرًا من فتنة الأولاد، قال تعالى لخليله إبراهيم: "إني جاعلك للناس إمامًا قال: ومن ذريتي قال: لا ينال عهدي الظالمين"... "ونادى نوحٌ ربَّهُ فقال رب إنَّ ابني من أهلي، وإنَّ وعدَك الحقُّ، وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك؛ إنه عملٌ غيرُ صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظُك أن تكون من الجاهلين قال رب إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين"... ونادانا من بعدهم: "يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًا لكم فاحذروهم"... وقد يُظن، أن الإسلام يدعو إلى الاستكانة، لأنني ذَكَّرْتُ بقوله - صلى الله عليه وسلم- : "من كره من أميره شيئًا فليصبر، فإنه من خرج من السُّلطانِ مات ميتةً جاهليةً".. ونبين: لقد حَصَرَ الإسلام خيرية هذه الأمة في الأمر

بالمعروف النهي عن المنكر" كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله " وقال رسوله - صلى الله عليه وسلم – لأصحابه: إنَّكم سَتَرَوْنَ بعدي أَثَرَةً وأمورًا تُنْكِرونها.. قالوا فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدُّوا إليهم حقهم وسَلوا الله حقكم؛ وسألوه بصريح العبارة: يا رسول الله إن كان علينا أمراءٌ يأخذون بالحق الذي علينا، ويمنعونا الحق الذي لنا أنقاتلهم ؟ قال: لا، عليهم مَّا حُمّلوا، وعليكم ما حُمّلتم، وأخبرهم بالذي سيكون بعده: "أتاني جبريل فقال إن أمّتَك مُفْتَتِنةٌ من بعدك ! فقلت من أَيْن ؟ قال من قِبَلِ أُمَرائهم وقُرّائهم؛ يمنع الأمراء الحقوق، فيطلبون حقوقهم فيفتنون، ويتبع القراء هؤلاء الأمراء فيفتنون. قلت فكيف يسلم من يسلم منهم؟ قال: بالكف والصبر؛ إن أُعْطُوا الذي لهم أخذوه، وإن مُنِعُوه تركوه". وأجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المُتغلب، والجهاد معه، وأن طاعته خيرٌ من الخروج عليه لمَّا في ذلك من حقن الدماء، وتسكين الدَّهماء، وحجتهم هذا الخبر؛ روى البخاري عن جُنادة بن أميةَ قال دخلنا على عُبادةَ، وهو مريضٌ فقلنا أَصْلَحكَ اللهُ؛ حَدّث بحديثٍ ينفعك الله به سمعته من النبيّ - صلى الله عليه وسلم - قال دعانا النبي - صلى الله عليه وسلم – فبايعناه، فقال فيما أخذَ علينا؛ أن بايعْنا على السمع والطاعة في منشطنا، ومَكْرَهِنا، وعُسْرِنا، ويُسْرِنا وأَثَرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله؛ إلا أن تروْا كُفْرًا بواحًا عندكم فيه من الله بُرْهانٌ.. وتساءل: هل الإسلام يدعو إلى قبول الظلم؟ وأن ما عرضت له يتعارض مع قوله تعالى: "إن الله لا يُغَيّرُ ما بقومٍ

حتى يغيروا ما بأنفسهم"، وأن الخروج في الخامس والعشرين من يناير كان خطأ، وأن الإسلام لا يقدم حلولًا لمشاكلنا المعاصرة؟! أقُولُ: اسمع لهذا الحديث، فعنه - صلى الله عليه وسلم - قال: "على المَرْءِ المُسْلِمِ السّمْعُ والطاعة فيما أحبَّ وكَرِه إلا أن يُؤمَرَ بمعصية، فإن أُمِرَ بمعصية فلا سمع ولا طاعة". وإليكم هذه الحادثة؛ بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم- جيشًا وأمَّر عليهم رجلًا؛ فَأَوْقَدَ نارًا، وقال ادخلوها، فأراد ناسٌ أن يدخلوها، وقال الآخرون، إنا قد فررنا منها؛ فَذُكِرَ ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم- فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة؛ وقال للآخرين قولًا حسنًا وقال: لا طاعة في معصية الله، إنّما الطاعةُ في المعروف.. أما سبيل الإصلاح الذي رسم الشارع الحكيم في موضوع مبارك، ولمن هم دون مبارك، كمدير إدارة، ووكيل وزارة، أو وزير، أو رئيس وزارة، فهذا الحديث لـ عُبادَةَ بنِ الصامت: بايعنا رسول الله على السمع والطاعة؛ في العسر واليسر؛ والمنشط والمكره؛ وعلى أثرة علينا؛ وعلى أن لا ننازع الأمر أهله؛ وعلى أن نقول بالحق أينما كنا؛ ولا نخاف في الله لومة لائم؛ قال النووي معناه..نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، في كل زمان ومكان، الكبار والصغار ولا نداهن فيه أحدًا، ولا نخافه، وأجمع العلماء أنَّه فرض كفاية فمن خاف على نفسه، أو ماله، أو على غيره سقط الإنكار بيده وبلسانه، ووجب عليه كراهيته بقلبه؛ أي لا يُرْكَنُ إلى ظالم كي لا يُقَرَّه على ظلمه.. وعرج لتظاهر شباب ٢٥ يناير وقولهم: عيش، حرية، كرامة إنسانية،

عدالة اجتماعية، هذا أمر محمود؛ فأعظم الجهاد كلمة حق عند سلطانٍ جائر، فهلا كان لهم قائد يجمعهم على كلمة سواءٍ؟ كما نلومهم على قولهم: ارحل لــ مبارك بعد أن استجاب لهم وأقر بخطئه؛ قال: إن استجابتي لصوتكم ومطالبكم هو التزام لا رجعة فيه، وإنني عازم كل العزم على الوفاء بما تعهدت به بكل الجدية والصدق.. وأعلن بعبارات لا تحتمل التأويل عدم ترشحه للانتخابات الرئاسية المقبلة، وبالمضي في النهوض بمسؤوليته في حماية الدستور، ومصالح الناس حتى يتم تسليم السلطة والمسؤولية لمن يختاره الناخبون في شهر سبتمبر المقبل.. فابتسم أحد الذين أحاطوا به، وقال له قبل أن ينصرف:

- لو سمعك مبارك، وكان لا يزال في السلطة لعينك شيخًا للأزهر، فقال بأسىً:

- والله يا أخي، ما كنت يومًا راضيًا عن أداء مبارك في العشر سنوات الأخيرة؛ ولا من رجالاته.

وكان قد اطلع بجريدة الأهرام التي خرجت تُصفق في حفاوة بهذا العنوان الرئيس: فرحة شعبية واسعة بقرار حبس مبارك ونجليه؛ نظيف، ووزراؤه التفوا حول جمال وعلاء داخل سجن طرة، وسألوا عن صحة الوالد.. استئناف التحقيقات مع الرئيس السابق فور تحسن صحته؛ وقالت الجريدة الحكومية: الشعب والجيش يزرعون الأشجار في ميدان التحرير.

أما جريدة المصري اليوم؛ التي طالما لعبت دور المهاجم فحنت: مبارك مصدوم نفسيًّا، ويمتنع عن الطعام، ويتهم الداخلية بالكذب.. الرئيس السابق للنيابة: قررت ترك السلطة في اليوم الرابع للمظاهرات، ولست مسئولًا عن قتل المتظاهرين.. تفاصيل الليلة الأولى لجمال وعلاء في السجن.. جمال فقد جزءًا من وَزْنِه، وعَلاءٌ مُتَمَاسِكٌ؛ والفقي يدعوهما لإفطار مع الوزراء المحبوسين..

وعاد بالسيارة إلى موقفها فلحظ أن القطة التي كانت تحتضر عند ذهابه غير موجودة، وكانت المفاجأة مُبهجةً حين سأل أمَّه فأكدت له:

- نعم قامت، فكانت فرحته فرحتين، فرحة بأنَّ القطة عُوفيت، وفَرحة بأن دعوته فيها قد أُجِيبت!!

كان انفلات الموظفين أيضًا قد بلغ مداه؛ يأتي أحدهم من بيته على راحته، وينصرف على راحته؛ لا يصنعُ شيئًا سوى الجَدَل.. وكان يخاطب إدارته إذا رأوا المنصرفين قبل الميعاد:

- ها قد عادت إليكم مصر، ما يمنعكم الآن من الالتزام؟!
- يا شيخ، لم يبق غَيْرُنا؛ الناس كلهم مشوا؟
- الساعة لم تأتِ الواحدة بعد.. يا مدام افرحي أنك تعملين فتأْكلُين الحلال .. فترجع مدام ماجدة لرشدها:

- يا شيخ؛ أنا لم أقم عن كرسيّ منذ الصباح، انظر، كَم هي ملفات الشركات؟

كانت مسئولة الصادر والوارد هذه كمضيق بين جبلين، يمر من عندها كُلُّ شيءٍ؛ طلبيات إلحاق العمالة المصرية للعمل بالخارج، والتعاقدات، والمكاتبات الواردة للإدارة، والصادرة منها، ونتائج الحَمَلات على الشركات التي تقوم بها الإدارة، والإعلانات، وخطوط السير، والإجازات، فلا تُوهَمُ في شيءٍ أبدًا؛ بل تفصل بينها ببراعة ربة بيت مَجيدة تجلس إلى طيرها فتعرف الحاضر، والغائب، والمستقيم من غيره. وكانت شركات إلحاق العمالة في نطاق المحافظة؛ قد فاقت المائة بعد أن كانت خمس شركات، فكل من وجد فضل مال، قام فأنشأ شركة إلحاق عمالة طلبًا للعائد السهل السريع.. وفي لحظة الحوار دخل الحجرة فرد من إدارة شئون المناطق؛ ليضع القفل؛ أمامه على المكتب، ويبتسم على استحياءٍ لانصرافه قبل الميعاد، وكان العامل المكلف بالمكان؛ كالعادة، قد انصرف من العاشرة، يعمل نجارًا بجوار الوظيفة، فيترك الغلق للمتأخر؛ أمَّا الفتح فهو له؛ وأحيانًا يقوم به أيضًا مجاهد.. فتصعبت على حالها مسئولة الصادر والوارد:

- يا عيني علينا، القفل دائمًا من نصيبا؟ واشتدت تعاتب مجاهد:
- يا شيخ كُلّ يوم القَفل من نصيبنا؟! فضج الجميع بالضحك؛ فانتبهت؛ فصاحت فيهم:

- حاشاه، هو يدري مدى احترامي لشخصه الغالي، والقفل يوضع على باب الشقة بعد غلقه زيادة في الأمان.

فنظر بامتنانٍ إلى زميليه المتعاقبين على الغلق، يمكث أحدهما إلى الثانية والنصف لغلق المكان، أما هو فكان يهرول راجعًا يوم الأربعاء في رواح النساء ليُعِدَ لدرس الأربعاء، والأحد لدرس المسجد، وباقي أيام الأسبوع تقريبًا يخرج في حملات على الشركات يفتش ويتابع الأداء؛ وكان زميله في الإدارة الذي أطلق على نفسه في ٢٥ يناير أنه ليبراليًّا؛ يقول له:

- يا مولانا لا أراك إلا مهرولًا، دائما ليس عندك وقت؟!

- يا أستاذ ماهر مخيول؛ لو تركنا متابعة الشركات؛ ما وُفّينا بطلبيه واحدة مما يرد إليهم من الخارج.. ودائمًا كان يعثر على المخالفات، فيقول لأصحاب تلك الشركات:

- كنتم تقولون بفساد النظام، فقامت ثورة؛ فما يمنعكم من الالتزام الآن؟! ودائما الإجابة حاضرة:

- يا شيخ، سقط رأس النظام فقط.

- "يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم"، وهل يمنعكم النظام من الاستقامة، أم أنكم ألفتم الفساد، ورضيتم أن تقتاتوا الحرام؛ بتهربكم من الضرائب حق الدولة؟ أليست مصر بلدكم؟! فيصيحون:

- مصر بلد النظام.

وبسبب انفلات الشارع؛ كان المشاركون في الحملات يخشون الخروج معه:

- يا شيخ خف يدك؛ الناس اجترؤوا كثيرًا، ولن نجد من يدافع عنَّا؟

- نحن لا نظلم أحدًا؛ نحن نطبق على المخالف القانون٠٠

ولأن الباشا الكبير؛ انتهى حاله إلى استعمال سيارة المديرية على الوجه المخالف كسابقيه؛ يذهب به السائق في نهاية الأسبوع إلى بيته في محافظته، وفي بداية الأسبوع التالي يسافر بالسيارة فيعود به، ولو كان هناك تصريح رسمي للسيارة بهذه المهمة لأُعطِيَ السائق؛ ليقدمه إلى فرد الرقابة الإدارية إذا ما اعترض طريقة، ورغم أن جميع أجهزة الدولة باتت في حالة نيامٍ تام إلا أن السائق تعنَّت؛ فحَدَّثَ الباشا الكبير عن تخوفه، فحدث بينهما مشادّة، فتصيد له.. ترك السائق حتى صعدا ديوان المديرية العام، فقام باستدعائه إلى حجرة مكتبه، ليأخذ في استجوابه في حضرة الوكيل:

- البارحة؛ أنت شربت سيجارة في الاستراحة؟ الباشا الكبير من فوق كرسي رئاسته وهو آخذٌ يروح به يمنه ويسرة. فردّ السائق في ثبات:

- حَصَلَ.

- ورميت عقب السيجارة في عين الحمام؟

- حَصَلَ.

- أنا كبّيت ستين جردل ماء في عين الحمام ولم يمش العُقُبُ، وظل طافيًا بعين الحمام.. فتندر السائق دَهشًا:

- يا سَلامْ؟!

- ليس عندك دمًا، أنت بارد، مدير المديرية؛ فاستطرد السائق:

- وهل أنا كنت في جامع؟!

- لا، ولكنّي مُفَضَلٌ عليك.

- وَلِمَ؟! هل سيادتك جئت من قُدّام وجئنا نحن من الوراء ؟؟؛ ما كُلُنا أولاد تسعة، نقبض من خزينة واحدة؛ وإذا كنت سيادتك مُفضلًا فبالذّوق والأدب.

- أنا الباشا الكبير؛ أعطي الأوامر وأحكم هنا، لا أحد ثانٍ معي.. وواصل يتصيد للسائق: أنت، من أعطاك التعليمات لتأتي بعيش المديرية في سيارة أُوُباما؟؟ فلم يفطن السائق للمعنى؛ فسأل:

- مَنْ أوباما؟!

- أنا أوباما؛ كلامي هنا يمشي على الجميع.. فتحدث السائق في برودٍ؛ وكان لازال يفكر في كلمة أُوباما:

- أنـا أعـرف أن أوبامـا يهـودي، وأنـت موحِـدٌ بـالله.. فَبُهِـت مـدير المديرية؛ إذ لم يفكر في هذه من قبل؛ فخفض رأسه هنيهة، ثم نكص على عَقِبِيه؛ ولم يعثر إلا على هذه العبارة:

- أنا أقول لك أنا أوباما مُفَضّلٌ عليك.

وحتى اللحظة كان وكيل المديرية حاضرًا غائبًا؛ أخذته المفاجأة من هذا الحوار الجريء للسائق؛ فجعل يسمع ويشاهد فقط؛ فالتفت مدير المديرية فزعًا يخاطبه:

- السائق لا يزال يرد عليّ! هات لي محمد عبد الرازق؟ فجيء بمفتش التحقيق هرولة، فقال له مدير المديرية:

- استخرج لهذا السائق قرارًا بخصم ثلاثة أيام من الراتب لتحدثه مع رئيسه بأسلوب غير لائق.. فتدخل السائق:

- أنت آخرك ١٥ يومًا، خذها كلها مرة واحدة حتى نقدر أن نتفاهم مع بعض.. فانتفض الباشا الكبير عن كرسيه فجذب السائق ليقعده عليه:

- أنت الآن تقدر أن تجلس فوق هذا الكرسي تدير شئون المديرية مكاني.. فبالغ السائق في التعدي:

- عندما يكون هذا الكرسي نظيفًا أستطيع أن أجلس عليه، فُدُفِعَ من الحضور إلى الخارج دفعًا، فالتفت يخبر وهم يخرجوه:

- هذه هي الفلول التي لم تمر عليها – بعد - ثورة ٢٥ يناير !٠ وكان مدير الشئون الإدارية قد أُحْضِرَ أيضًا، فالتفت إليه مدير المديرية ليأمره:

- أريد سائقًا آخر.

- تمامٌ يا باشا.. فأتبع للمحقق بخصوص السائق؛ وقد هدأت ثورته شيئًا ما:

- أَرْفِقْ به يا محمد يا عبد الرازق؟ أعطه ثلاثة أيام جزاءً فقط؟ هذا جاهل.

* * *